النزاهة

(تابع ما قبلهُ)

اينما اتجهنا نلق غواة الغش وحيث رحلنا نعثر بدعاة الخداع حتى ضاع الاعتماد بين ثنايا الكذب والحيل وفقدت الثقة بين ادراج النكث والتغرير. لا اذهب الى ان تلك الرذائل نتاج العصر الحاضر اوجدها القرن العشرون وولدها الزمان القائم بل ان لحضارة اليوم اساليب غريبة لخنق النزاهة وتفنناً عجيباً في استئصال تلك المكرمة لم تعرفها الاجيال الغابرة والقرون الدابرة انتجها اتساع التجارة ومزاحمة الصنّاع واشتداد الكفاح الحيوي والتلاعب بالسياسة. تآصرت جميع تلك العوامل فاشتدّ ساعدها ومدّت في الارض رواق الفساد ونشرت الوية الضلال فصاح مهذبو البشرية صيحة الخيبة واليأس ونادى دعاة الهدى الى الطريق المستقيم . فكيف لا يحسرون اللثام عن ثغر البيان والانذار عند ما يرون عمّال الحكومات يعرضون عن العدل ويغضون النظر عن القانون ويتلاعبون بالاحكام حسبما شاءوا وشاء هواهم . ويغش التجار بضائعهم فيقتلون الخمر بالماء ويخلطون طحين البر بدقيق الذرة والشعير بالرمل . ويقلدون الشارات الشهيرة (الماركات) ترويجاً لبضائعهم ويعرضون امثولات ويسلمون بضائع مباينة لها. ويخدع اصحاب المعامل زبناءهم فيبيعون لهم سلعاً سداها الغش ولحمتها الخداع . القطن عوض الحرير والمعدن الزائف بدل المعدن الجيد وخبيث المآكل بمقام صالحها ولحوم الفار والقطط مكبوسة في العلب مع الجيفة بمثابة لحم الغنم والبقر. ورصاص البنادق محشواً مواد لا تنفجر ولا تنطلق . ويظهر الغش في الاوزان والمكاييل والمقاييس وفي تداول النقود الزائفة ونكث العهود ونقض المقاولات التجارية . ولكن لا يغني ذلك المين فتيلاً ولا يوصل الى النجاح والفلاح وان بدت بوارقهُ ولاحت انوارهُ بادىء بدء فسراع ما يُدجى ليلهُ ويمحص الحق ويزهق الباطل فينكشف المورّى ويتضح المعمى ويعقبهُ فشل ومهانة واخناق المساعي . كيف لا والنزاهة في الاعمال رائد النجاح . خذوا مثالاً لذلك الدولة البريطانية فانها سيدة البحار ومالكة زمام التجارة وقد بلغ البريطانيون معظم هذا الشأو في التجارة الداخلية

والخارجية بنزاهتهم وصدقهم في المعاملات حتى اضحت مصنوعات الانكليز غنية عن كل فحص وجديرة بثقة العموم ويكفي الشاري ان يقرأ عليها (Made in England) حتى يدفع بها ثمناً رضيًّا. قال موسيو لبلاي Mr. Le Play عند ما زار انكلترا وشارف عمالها « انهم يبذلون وسعهم في تدقيق كميات واجناس البضائع التي يبعثون بها الى الخارج تدقيقاً لا مزيد عليه »

ولرب معترض يقول ان في الامر سرًّا يستوقفهُ واحجيةً لا يعرف مفسرها. وهو ان انساناً يتلوث بكل دناءة ويركب من الخيانة كل مطية فيدل دونهُ العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب ذيلاً من العفو والرضوان فيصبح ويمسي معززاً بين قومهِ يتبختر بطيلسان المجد والكبر ويتباهى بلباس الانقة والنزاهة. ورجل فتلتهُ مرة فاتلات الغرور واستهوتهُ غواية الشرور فوقع حيناً في شرك الرذيلة فيفضح امرهِ وتنزل بهِ المثلات وتحل بهِ العقوبات فيمسي صريع الذل والاستكانة ويقرعهُ الاصدقاء والاعداء ويقولون هذا جزاء ما غرست يداهُ والذنب مشفوع بنقمتهِ فان لم يلقَ تبعة اعمالهِ عاجلاً فآجلاً لان للامور اوقاتاً وآجالاً

للناس مذاهب في النزاهة وآراء تختلف باختلاف تربيتهم وتباين اخلاقهم وتفاوت حرصهم على خزن المال نرجعها الى اربعة آراء اصلية نورد فيها اقوالاً مأثورة نبني عليها هذا القسم من بحثنا :

١ قال الشاعر الانكليزي برنس Burns يبتين من الشعر مفادهما ان الرجل النزه وان هبط الى دركات الفقر فهو ملك لنزاهتهِ . هذا كلام اديب يترفع عن الخسائس ويبدأ اريب جميل العرض يأنف العار ويتصوّن من المعايب. ويحاكيه في جمال ابتدائه مثل سليمان الحكيم القائل الاسم الصالح خير من غنى كثير. وتماثلهما ابيات شكسبير التي مطلعها مولاي العزيز ان الاسم الصالح حلية الرجل والمرأة تزين نفسيهما . ويضاهيها المثل الفرنسي القائل الشرف خير من الدرهم

٢ اوصى اب ابنهُ قائلاً « يا بني قد سلكت طرق النزاهة والخساسة واختبرت كنههما فعلمت ان للنزاهة المزية الظاهرة والغرة الواضحة ، فهذا رجل قد سلك مسالك الفضيلة والرذيلة وقبض براحتيهِ على الماء والنار ونظر في احناء الجبل واعطاف الوادي حتى علم مميزات كل منهما ولم يستفد من تجارب الغير شأن الحكيم

العاقل ولم يدرك جمال النزاهة بالمجردات النظرية والبراهين العقلية بل اراد ان يعلم قيمتها بالمحسوسات فهو غير ساقط ولا خائر القوى الادبية بل شجاع نشط الى اصلاح ما فسد من اخلاقه وقدم على تقويم ما اعوج من آدابه فهو من اهل الهدى فاصغوا الى نصحه ومن ارباب الحجى فاسمعوه

٣ واوصى آخر ابنهُ وقال لهُ « يا بني انك على ابواب الحياة وستدخل معترك الاعمال فيزاحمك المزاحمون ويحاولون ان يسلبوك مالك فان وقفت مثل هذا الموقف فاني اوصيك ان تتفنن في اساليب الخداع فالاجدر بك ان تَخدَع من ان تُخدَع » تلك وصية تشفّ عن نفس لا مقدرة لها على دفع الضرّ عنها الاّ بالشرّ ولا سلاح لها الاّ سلاح الغش. وتريك لوحاً من الواح النفس الصاغرة امام المحن الادبية والفائتة امام التجارب الاخلاقية. ولكن الرجل الحر الشهم لا يوصي مثل هذه الوصية بل يتمثل بقول البحتري :

واقسم لا اجزيك بالشر مثله كفى بالذي جازيتني لك جازيا

٤ واوصى ثالث ابنهُ قائلاً « يا بني عليك بالمكاسب وتأثل المال من مصادر نزهة وطرق ورعة إن تسنّى لك ذلك والاّ فاركب كل عظور ومحرم واقترف الدنايا والسيئات في خزن الدرهم والدينار » وكأني به يقول بالمثل العربي « جاهر اذا لم تجد مختلاً » . هنا تظهر الخساسة بأتم مظاهرها وتبرز الموبقات من مكمن النفس الاثيمة السافلة التي تتدلى كل نفيس عزيز في سبيل الفنّ وتضحّي التصوّن والمبادىء الشريفة على هيكل الجشع ومذبح البخل . وقانا الله شرّ امثال هذا الرجل الخسيس الدون فانهُ مفسدة المجتمع واقصى عنا عابد المال فانهُ حجر عثرة في ممر الاخلاق الحميدة

هذه هي حالات النفس الاربع . ومما يقضي بالعجب العجاب رجل يرتكب الدنايا ويخون في اشغاله ويستحل درهم اليتيم ودينار الارملة فيؤنبهُ ضميرهُ ويقرّعهُ وجدانهُ فيعمد الى تخفيف تلك الوخزات وتلطيف تلك الآلام النفسية فيشيد المعاهد الدينية والمقامات الخيرية ظناً منهُ انهُ يزكي مالهُ وينقي ثروتهُ ويفتح لهُ الى ابواب الجنة سبيلاً . فبراته قذى في عين التقى فلا تشفع به معاهده في موقف العرض والحساب وموضع الثواب والعقاب فالمال يثمر لصاحبهِ ولن تغفر الذنوب الاّ برد المسلوب

قد وُجدت الايمان المغلظة لحفظ الزمام ورعاية المواثيق ولكن ما اكثر الذين يتخذون الاقسام وسيلة يستترون بها غدرهم . يتسم السفيل بشيء معنوي او مادي ساخراً بهما كليهما وبالمشترع الذي اوجد تلك الوسيلة للقيام بالامانة . يضع يده على مجموع صحف يدعوها اربابها الكتاب الكريم والانجيل الطاهر والتوراة المقدسة وهي عند المنافق اوراق لا تمتاز عن الورق الذي يُلف به شاي العطار او لحم البقار فيقف متقسماً مقسماً بالسماء وربها ومعاهداً الله والناس بشفتيه ان يسير في مبيع الوفاء ولكنهُ يتدرع سرًّا بالكون وخالقهِ ويلج في غلوائهِ ويتمادى في الخيانة بظلّ يمينهِ الوارف . فلا يسوء بهِ الظنون لانهُ محلف ويتألى بشرفهِ ان يكون اميناً وأنى للشرف ان يكون اميناً لمن يريد ان يدوس النزاهة برجلهِ كما تدوس سنابك الخيل خضراء القوم وغضراءهم . ويحلف الدنيء براية الدولة وعلم المملكة ان يتبع سنن النزاهة ولكنهُ يخيط من قماشهِ حقيبة يودعها اجرة خيانتهِ وما اصدق قول ابن حجاج القائل :

وادعوهم الى القاضي عساهم اذا وقع الجحود يحلفوني
واضيع ما يكون الحق عندي اذا عزم الغريم على اليمين

فلمَ قد جعلت ايها الخالق الانسان حرًّا يتقلب بين غريزتي الكلب والنمر وبين سليقتي الحمل والذئب . امانة الكلب ووداعة الحمل اسمى من غدر الانسان الحر المسؤول عن افعاله . والنمر الشرس والذئب الخاطف اسمى باخلاقهما من منافق يظهر النزاهة ويستبطن الخساسة . جاء في صحيح البخاري عن النبي انهُ قال « آية المنافق ثلاث اذا حدّث كذب واذا وعد اخلف واذا اؤتمن خان » . حسنة هي الايمان المحرّجة ولكن ما الفائدة منها إذا يمرها قادة الامم بالاً ولا احترمها روّاد السياسة . وكيف تسود النزاهة بين الاقوام حينما يسمعون احد الملوك يقول ان معاهدات الدول ما هي الاّ قصاصات ورق او خطوط سوداء على رقع بيضاء

قد اقام الوازع حدًّا والمشترع قصاصاً لمن كان صريع الغدر واخا الخيانة ولكن السجن وحدهُ لا يقوّم الاخلاق الذميمة ولا يهلك جراثيم الفساد . والسلاسل لا تربط شيطان الجشع بل التهذيب والتربية يجملان الشمائل ويرغبان

في المكارم والمحامد وتوطين النفس على الفضائل انجع في استتباب النزاهة من كل الوسائل. فلذا لو اقيمت بعض المعاهد الاخلاقية في زوايا السجون والقيت فيها الدروس الادبية لافادت المذنبين واصلحت سيرتهم اكثر من وجودهم بين طابقين من اشغال شاقة وعوز مهلك

للاخلاق ظواهر غريبة يقف عندها الفلاسفة حيارى لا يقووز على تعليلها ولا يعرفون ميدأها ومنشأها. أفيقسبونها الى الخلقة وتركيب الجسد وكريات الدم وتلافيف الدماغ والتأسل او الى التربية والتهذيب والاخذ بالعادات . فقد اختلفت اراؤهم وتباينت افكارهم ففريق منهم قال بالفطرة والسليقة والتأسل وفريق بالتربية والتهذيب وفريق ثالث وفّق بين الرأيين وجمع بين القولين وقال ان للفطرة والوراثة فاعلية عظمى ولكن يد التربية تخفف غلواء السليقة وتقوّمها. وهذا الرأي معقول ومقبول يؤيدهُ الاختبار وتثبتهُ المأجريات . وقد تكون النفس احياناً مصابة بامراض عضالة لا تقوى على برئها التربية . عرفت شخصاً من ذوي البيوتات والثروة مهذباً ينفق على بيتهِ كما ينفق اغنى واكبر البيوت ويكرم ضيوفهِ من صلب ثروتهِ كانت قد اعترتهُ عاهة نفسية عاهة السرقة ولم يتمكن من التخلص منها مهما بذل جهدهُ وكانت سرقتهُ شيئاً زهيداً لا يعبأ بهِ ولربما لا يساوي يومية خادم من خدمهِ . الاَ تكون هذه الحال داعية الاسف تبعث في علماء الاخلاق نشاطاً يدفعهم الى البحث عن عللها وطرق علاجها فهي ادعى الى العلاج من امراض البدن واوصاب الجسد

رأينا ان النزاهة هي عنوان مجد الامة وفخر افرادها وسلّم النجاح ومرقاة الفلاح وفضيلة الملك والمملوك وعمدة الكبير ومكرمة الصغير وغاية النفوس الابيّة وغرض العقول السامية المدارك وهي ضالتنا المنشودة وربيبة مجدنا المعهودة فالى مغناها نسوق مطايا الهمم والى ربوعها ننضي ركائب الشوق والغرام. فلا نحسد ملكاً في عرشه ولا اميراً في تاجهِ ولا غنياً في ثروتهِ ولا سيداً في منصة سيادته ولا قائداً في طليعة جيشهِ بل نحسد قلباً جعل النزاهة قبلة غرامهِ ونحسد ميتاً كتب على قبرهِ ونقش على لحدهِ « هنا يرقد شهيد النزاهة وبطل المروءة »

بغداد يوسف رزق الله غنيمة